

التفسير المطول - سورة القارعة ١٠١ - الدرس (١-١) : تفسير الآيات: ١ - ٨ الميزان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢١٠٦-١٩٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزرنا علماء، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنها وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

القارعة بمعناها اللغوي ليست مقصودة في هذه الآية :

أيها الأخوة المؤمنون، سورة اليوم سورة القارعة، الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمٌ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثُ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِنْدِ الْمَنْفُوشِ * فَمَمَّا مَنْ ثَقْلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمَّهَ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهُ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾

القارعة وردت ثلاثة مرات، في قوله تعالى:

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾

لو فتحنا قواميس اللغة ومعاجمها، القارعة أن تقع أي تضرب شيئاً صلباً بشيء صلب، هذا هو المعنى المعمجمي واللغوي وهو بالتأكيد أن الله لا يريد، لو أن الله سبحانه وتعالى يريد المعنى اللغوي لما قال:

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾

في هذه الآيات الثلاث الأولى إيهام وتهويل وتعجيز :

قد أقول لكم الجدار وما الجدار وأدراكم ما الجدار، لا يمكن أن تعني هذه العبارة الجدار، قد أحذثكم عن جدار الصوت وعن طائرة أسرع من الصوت، وهذه طائرة تجعل أمامها جداراً ثم تخرقه فيحدث دوي كبير، قال علماء التفسير: في هذه الآيات الثلاث إيهام وتهليل وتعجيز، فحينما قال الله تعالى: القارعة، شيء منهم، معنى القارعة اللغوي لا يرقى لأن يكون من كلام الله عز وجل، لا بد أن الله سبحانه وتعالى يريد شيئاً كبيراً جداً، أكثر من أن تضرب شيئاً صلباً بشيء صلب؛ فحينما جاءت القارعة مبهمة كان إيهاماً باعثاً لنا لطرح السؤال؛ جاء السؤال: ما القارعة؟ تهليل ثم جاء التعجيز، وما أدراك ما القارعة؟ أي إن أحداً على وجه الأرض لا يستطيع أن يدرك ما القارعة، لماذا؟ لأنها من أمور الغيب، الإنسان محظوظ عن الماضي

بالزمن، ومحجوب عن المستقبل بالزمن، فهذا المكان الذي نحن فيه لا ندرى قبل ألف عام من أقام فيه؟ هل كان بستانًا؟ هل كان بيته؟ هل كان طريقاً؟ هل كان ساحةً؟ فنحن محجوبون عن الماضي بحاجز الزمن، ولا ندرى بعد ألف عام ما سيكون بهذا المسجد! هل سيأتي مسجداً يوماً يُؤمّن به المصلون، ماداً يحصل ونحن محجوبون عن عالم المستقبل بحاجزِ الزمن؟ ونحن محجوزون عن الحاضر بحاجز آخر وهو المكان؟ نحن الآن في دمشق لا ندرى ماداً يجري في مكة! ولا ندرى ماداً يجري في المدينة! لا ندرى ماداً يجري في القطبين! فالإنسان أمام ثلاثة حاجز، حاجز المكان يحجزه عن الحاضر وحاجزِ zaman يحجزه عن الماضي والمستقبل، وما دامت القيمة وهي يوم القيمة من الأمور الغيبية التي لم تحدث بعد فإن أحداً من بنى البشر لا يستطيع أن يخبرنا عنها إلا الله سبحانه وتعالى، لأن الله سبحانه وتعالى خالقِ الزمان والمكان، والزمان والمكان لا يحجبان عن الله شيئاً لأنهما من خلقه، إذا القيمة شيءٌ منهم، ما القيمة؟ سؤالٌ مثيرٌ يبعث الاهتمام، وما أدرك ما القيمة تعجيز.

ومن أسماء يوم القيمة القيمة، الحقة، الطامة، الصاحبة، يوم الفصل، النبأ العظيم، هذه كلها من أسماء يوم القيمة، والقيمة أحد هذه الأسماء، ولكل شيءٍ من اسمه نصيب.

الحكمة من جعل كلمة (القيمة) كلمة مبهمة :

لَمْ سَمَّاهَا اللَّهُ الْقَارِعَةُ؟ لَأَنَّهَا تَقْرَعُ الْإِنْسَانَ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ قَالُوا يَا وَيَلَّا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾

[سورة يس: ٥٢]

تصنيبه بالذهول، قال تعالى:

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلْقَوْا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

[سورة الزخرف: ٨٣]

أي ضربٌ شديدٌ مفزعٌ مخيفٌ تصعق له النفوس، تقرع الإنسان فتصنيبه بالذهول، تقرع السماء فتصنيبها بالانفجار والانشقاق، قال تعالى:

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَتْ ﴾

[سورة الانشقاق: ١]

وقال:

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾

[سورة الانفجار: ١]

تقرع الجبال فتنسفها نسفاً وتذكّها دكاً، تقرع البحار فتجبرُها، وتقرع النجوم فتتکدر، تقرع الشمس فتُنكِرُ:

﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾

أحد أسماء يوم القيمة، لكنه لشدة الهول وعظم المصيبة، ولخطأة الخطب، ولأنها تدك كل شيء، وتتبين معالم كل شيء، وتبطل كل القوانين، وتحل كل التماسكات، وتعطل كل الزمن، وتجعل الشمس تتکور، والنجوم تتکرر، والسماء تنفطر، والبحار تُجَرِّ، وتجعل الأرض تشقق وتُدك، والإنسان يسعى، جعلها مبهما.

القارعة هنا لها معنى اصطلاحي وهو يوم القيمة تقع كل شيء وتُصييه بالذهول:

ذكرت قبل قليل أن هناك معنى لغوياً ومعنى اصطلاحياً، فالقارعة بمعناها اللغوي ليست مقصودة، مثلاً كلمة "نحو" تقول ذهبنا نحو المدينة، فكلمة نحو لها معنى لغوي، ولكن علماء اللغة استعملوا هذه الكلمة كمُصطلح؛ علم قواعد الكلام فإذا قلت تعلمته النحو هنا تقدّرها بالمعنى الاصطلاحى، الحجّ هو القصد فإذا قال الله عز وجل:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلَهُ عَلَى النَّاسِ حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

[سورة آل عمران: ٩٧]

فالحجّ هنا له معنى آخر، وهي العبادة التي تعني الذهاب إلى البيت الحرام والطواف حوله والسعى بين الصفا والمروءة، والوقوف بمنى ومزدلفة وغيرها، فالحجّ له معنى لغوي وأصطلاحى، فقرع بمعنى ضرب، العبد يقرع بالعصى والحرّ تکفيه الإشارة، لكن القارعة هنا لها معنى اصطلاحى وهو يوم القيمة تقع كل شيء وتُصييه بالذهول، وتبدل معالم الكون، تعطل علاقاته، وتُنْطِلُّ قوانينه:

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾

أضيق دائرة هي المشاهدات ثم المسموعات ثم الخواطر :

ثم قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمُبْثُوثِ﴾

قبل أن نشرح هذه الآية نقف مرة ثانية عند مدلولات الألفاظ، ربنا عز وجل قال:

﴿مِثْ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عَقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعَقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

[سورة الرعد: ٣٥]

لماذا قال الله عز وجل مثل الجنة؟ لأن الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي قال:

((قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذْنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْةً أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[مسلم عن أبي هريرة]

وفي الحديث ترتيب منطقي، الإنسان له مشاهدات مخصوصة في دائرة، وله مسموعات وهي أشياء سمعها، لكن دائرة المسموعات أوسع بكثير من دائرة المشهودات، المشاهدات ما شاهدته أنت لكن المسموعات ما شاهدته أنت وما شاهده غيرك فسمعته أنت، لكن دائرة ثلاثة هي دائرة الخواطر وهي واسعة جداً؛ قد تشاهد إنساناً طوله مترين، وقد تسمع أن إنساناً في القارة الفلبانية طوله مترين ونصف! هذه مسموعات، وقد يخطر في بالك إنسان طوله ثلاثة أمتار، فكما تلاحظون أن أضيق دائرة هي دائرة المشاهدات، والتي بعدها دائرة المسموعات، والتي بعدها دائرة الخواطر، الآخرة شيء لم يقع بعد قال الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسية:

((قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذْنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْةً أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[مسلم عن أبي هريرة]

الفواكه التي في الدنيا ليس منها في الجنة إلا الاسم :

ربنا عز وجل إذا أراد أن يعرّفنا عنه، يعرّفنا بالجنة، وما فيها من فواكه فقال: فواكه وهم مكرمون، قال: عنب ورمان، قال: نخيل وأعناب ورمان، فثمة أسماء فواكه في الدنيا، هذه الفواكه التي في الدنيا ليس منها في الجنة إلا الاسم، لها طعم آخر بحيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من الآيات التي تعني هذا المعنى قوله تعالى:

﴿ كُلُّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلٍ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُظَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

[سورة البقرة: ٢٥]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام: "ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم" ، قد يكون في الجنة تفاح ولكن تفاح الجنة له طعم آخر لم نشاهده ونسمع به ولم يخطر على بالنا ولم نتدوّقه بعد، ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، أعددت لعباد الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالله عز وجل يستخدم كلمات نستعملها في كلامنا ولكن المدلول الإلهي لهذه الكلمات ليس المدلول الذي نفهمه نحن، لا بد من فهم آخر لكلمات الله عز وجل. قال تعالى:

﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمُبْثُوثِ ﴾

الحقيقة أن مشاهد يوم القيمة كثيرة؛ من هذه المشاهد أن الله سبحانه وتعالى خير بأعمالنا، ويُرِينا أعمالنا، ويُنطِقُ أيدينا وأرجلنا وجلوتنا علينا، وبل يُنطِقُ الأرض كلها بما فعلنا، وهذا مشهد من مشهد يوم القيمة.

هذه السورة اختصت بمشهد واحد من مشاهد يوم القيمة وهو الميزان :

الحساب مشهد، والجزاء مشهد، والميزان مشهد، هذه السورة اختصت بمشهد واحد من مشاهد يوم القيمة وهو الميزان، كيف توزن أعمال المرء في هذا اليوم العظيم، يوم يكون الناس، هؤلاء البشر الذين هم أكرم المخلوقات، والذين كرمهم وخلق لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة، هؤلاء البشر الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَهَمْلَهَا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

[سورة الأحزاب: ٧٢]

هؤلاء البشر الذين سخرت لهم السماوات والأرض يوم القيمة يكونون كالفراش المبثوث وهي صورة، لماذا شبههم الله تعالى بالفراش؟ قالوا: لأن الفراش أضعف المخلوقات، وقالوا أيضاً لأن الفراش من أغبي المخلوقات فهي تلقي بنفسها في حتفها، في الضوء فتموت، الذين ضيّعوا الأمانة، هؤلاء الذين نسوا الله في الدنيا، وعصوه، يوم القيمة يكونون كالفراش المبثوث، والمبثوث المنتشر، والمُتفرق، وهو الذي ليس بينه وبين الآخرين علاقة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَتَّمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوْلَى مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورَكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَاعَاءِكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيهِمْ شُرَكَاءٌ لَقَدْ تَقْطَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرْعُمُونَ﴾

[سورة الأنعام: ٩٤]

فإنسان يوم القيمة ينسلخ عن كل علاقاته الدنيوية إن كان متنبيا إلى جماعة ينسلخ منهم، وإن كان قوياً ينسلخ من قوته، وإن كان ذا شأن ينسلخ من شأنه، وإن كان ذا مال ينسلخ من ماله، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، فراش مبثوث.

الله سبحانه وتعالى يسحب أمداده من الجبال التي كانت في الدنيا فتغدو كالعهن المنفوش:

ثم قال تعالى:

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعَهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾

الحقيقة الله عز وجل ضرب لنا مثل الأشياء الضخمة الصلبة والمتماسكة الشامخة في حياتنا، وهي الجبال، الجبال تبعث في النفس الورق، ولها سلوكها وقارها، والإنسان يعظمها أحياناً، هذه الجبال المترادفة في الدنيا ذرّاتها صلبة، الله سبحانه وتعالى يسحب أمداده منها فتغدو كالعهن

المنفوش، العِيْن الصوف الملوّن الذي انْفَصَلَ عن الغنم، والمنفوش، قد تجد على ظهُرِ الغَنَمَة صوْفاً مُنْكَتَلًا يأْتِي الإِنْسَان فَيَقُولُ:

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِيْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾

قال تعالى:

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدِقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾

[سورة يس: ٥٢]

الفرق بين كلمة (وما أدرك) وكلمة (وما يدرك):

الله سبحانه وتعالى إذا قال: وما أدرك، معنى ذلك أنه سيدرك هو! ولا أحد في الأرض مؤهلاً كي يدرك لكن الله وحده يدرك، أما إذا قال الله سبحانه وتعالى: وما يدرك هذا من شأن الله سبحانه وتعالى، لا أحد يدرك والله لن يدرك، مثلاً الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾

[سورة الشورى: ١٧]

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيَنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدَاءً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ خَبِيرٌ ﴾

[سورة لقمان: ٣٤]

وقال:

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَرْكَى ﴾

[سورة عيسى: ٣]

معنى ذلك أنَّ هذا من اختصاص الله تعالى.

(وما أدرك) تعني أن أي إنسان لا يستطيع أن يدرك ولكن الله يدرك :

لكن الله تعالى قال:

﴿ الْحَاقَةُ مَا الْحَاقَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَةُ ﴾

[سورة الحاقة: ٣-١]

الله سبحانه وتعالى أدركنا ما الحاقة، وقال:

﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾

وقال:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾

[سورة المدثر: ٢٧]

وقال:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾

[سورة المرسلات: ٤]

وقال:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾

[سورة الانفطار: ١٧]

وقال:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا ﴾

[سورة المطففين: ١٩]

وقال:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقبَةِ ﴾

[سورة البلد: ١٢]

وما أدراك ما العقبة، وقال:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾

[سورة الطارق: ١٩]

وقال:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقُدْرِ ﴾

[سورة القدر: ٢]

وقال:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾

[سورة الهمزة: ٥]

وقال:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيهَةُ ﴾

[سورة القارعة: ١٠]

في آخر هذه السورة، فحيثما وردت: وما أدراك، تعني أن أي إنسان لا يستطيع أن يدرك ولكن الله يدرك.

الإنسان ينبغي أن يقول (إن شاء الله) إذا أراد أن يفعل شيئاً في المستقبل :

أما إذا قال تعالى:

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾

[سورة الأحزاب: ٦٣]

كان ذلك معنى آخر، وهو أنه تعالى سوف يدرك:

﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾

القارعة تكون:

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ﴾

قال تعالى:

﴿فَإِذَا نُخَنَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يُوْمَنْدٌ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

[سورة المؤمنون: ١٠١]

الإنسان ينبغي أن يقول إذا أراد أن يفعل شيئاً في المستقبل: إن شاء الله، وبناءً على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلُ ذَلِكَ غَدًا﴾

[سورة الكاف: ٢٣]

كل حدث يقع في المستقبل لا بد له من خمسة عناصر وهذه العناصر لا يملكونها الإنسان:

بعض العلماء قال: الأحداث لها خمس مقومات: الفاعل والمفعول والمكان والزمان والسبب والقوة، مثلاً إذا قلت: إنني غداً سأذهب للطبيب الغلاني، يجب أن تقول: إن شاء الله، لماذا؟ لأنّ بقاءك إلى اليوم الثاني ليس بيتك، فقد يأتي غداً وأنت تحت التراب، وقد يأتي غداً والطبيب تحت التراب، فالفاعل الذي هو أنت لا تملك حياتك إلى الغد، والطبيب الذي أنت ذاهب إليه لا يملك حياته إلى الغد، والمكان الذي فيه الطبيب قد يصيّبه زلزال فيجعله رأساً على عقب، والزمان قد ينقطع، وأما السبب فإن أراد الإنسان أن يذهب إلى الطبيب ليعالج ابنه، فإذا مات ابنه انعدم السبب، وأما القوة فلو أن الله سبحانه وتعالى لا يمد الإنسان بالقوّة فكيف يذهب إلى الطبيب؟ فكل حدث يقع في المستقبل لا بد له من الفاعل والمفعول والمكان والزمان والسبب والقوة، وكل هذه العناصر الخمسة لا يملكونها الإنسان، فإذا قال: سأفعل هذا غداً فقد أساء إلى عقيدته، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من عَدَّ غَدًا مِنْ أَجْلِهِ فَقَدْ أَسَاءَ صُحْبَةَ الْمَوْتِ))

[تخيير السيوطي عن أنس]

فالعجز على فعل الشيء دون قوله إن شاء الله فقد أساء صحبة الموت، هذا الكلام سُقطَ على قول الله سبحانه وتعالى على قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾

القضاء في الدنيا قد يخطئ لذلك لا علاقة له بقضاء السماء :

الآن دخلنا في صلب السورة، وهو متعلق بالميزان قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾

لما السيدة عائشة قالت: يا رسول الله، أيُعرفُ بعضاً يوم القيمة؟! قال: نعم، يا أم المؤمنين إلا في ثلاثة مواضع، إذا الصحفُ نشرت، وعند الميزان، وعلى الصراط.

لماذا لم يقل الله عز وجل: فاما من ثقل ميزانه؟! وقال: لم جاءت كلمة موازين بالجملة ولم تأت بالمفرد؟! قد تضطر لوزن الذهب، وهناك ميزان خاص للذهب، إذا كان هناك مروحة توقفها لأن ضغط الهواء قد يسبب رجحان كفة الذهب والذهب غال، فالذهب ميزانه، ولكن إذا وزنت شيئاً بالكيلوغرامات لا تحتاج إلى توقف المروحة، ولا إلى ميزان حساس، هناك موازين إن وضعت ورقة وكتبت اسمك عليها وزن المداد يرجح الكفة، هذا ميزان حساس، هناك ميزان أشد حساسية بحيث لو وضعت يدك على الكفة وهبطت بها، هذا الهبوط الخفيف يسبب هبوط الكفة، وهناك ميزان لو وضع عليه مئة كيلوغرام لا يتحرك، وهو ميزان السيارات الضخمة، فربنا عز وجل قال:

﴿فَإِمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾

معنى ذلك أن كل عمل له ميزان خاص به، السبقة لها ميزان، والذكاء له ميزان، معاييرك لو الذي لك لها ميزان، علاقتك بزوجتك لها ميزان وكذا بأولادك، كسبك للمال له ميزان، كيف أنفقته؟ له ميزان، وكذا وقتك والعمل الصالح وعلاقتك بالجار، كل هذه لها ميزان، لذلك ربنا عز وجل قال: ثقلت موازينه، ومعنى ثقلت أي ليس هناك حاجة لوزن الحسنات ثم لوزن السيئات! بل توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة فإذا رجحت السيئات - لم يقل الله عز وجل رجحت بل خفت ومعنى ذلك الأصل الحسنات، والحديث عن الحسنات فقط إما أنها راجحة وإما أنها خفيفة، أو كان الحسنات هي كل شيء، إما أنها كافية لتسعد بالجنة إلى الأبد وإما أنها خفيفة ليست كافية، لذلك قال عليه الصلاة والسلام حينما أمر أحد الصحابة رضوان الله عليهم أن يدع الجهاد معه وأن يلزم أممه وأباء وقال: صابر الله في بريهما، أي بري الوالدين عمل يرجح في الميزان وتقليل ولهم قيمتها، هداية الناس عمل تقليل له قيمتها، يا علي لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خيرا لك من الدنيا وما فيها، خيرا لك مما طلت عليه الشمس، خيرا لك من حمر النعم، لماذا قال الله تعالى: ميزان، واستخدمها؟ الإنسان أحياناً قد يقيّم شيئاً، سيدنا رسول الله قمة البشر وسيد ولد آدم ومع ذلك لو جاءه خصم وكان أحدهما أحن من الآخر فلن ينجو من عذاب الله، هذا القضاء لا علاقة له بقضاء السماء.

القاضي بشر ويجهد أن يصيب لكن ميزان القاضي قد لا يكون كميزان الله عز وجل:

القاضي بشر ويجهد أن يصيب لكن ميزان القاضي قد لا يكون كميزان الله عز وجل، يروي التاريخ أن قاضياً توجه إلى أحد الخلفاء وقال: يا أمير المؤمنين، أريد أن تعييني من منصب القضاء! فقال الأمير: ولم؟ وليس في الأمة من هو أعدل منك! فقال: والله لقد شاع بين الناس أنني أحب الرطب، وفي أحد الأيام طرق الباب رجل وقدم لخادمي طبقاً من الرطب، وجاءني بها في بوأكيرها - إذ الفاكهة التي تأتي في وقتها محببة جداً! فقال: من هذا؟! فقال الخادم رجل في

الباب، فقال: صِفَةٌ لِي فَلِمَا وَصَفَهُ لَهُ، عَرَفَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلُ لَهُ قَضِيَّةٌ عِنْدَهُ فَرَدَ الطَّبِيقَ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي جَاءَ الرَّجُلُ إِلَى مَجْلِسِ الْقَاضِيِّ فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا اسْتَوَيَّا فِي نَظَرِي - الْخُصْمَانَ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنِّي رَدَدْتُ الطَّبِيقَ، فَكَيْفَ بِي إِذَا أَحْدَثْتُهُ! فَهَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ مَهْمَا كَانَ مِيزَانُهُ حَسَنًا قَدْ لَا يُسْتَطِعُ تَقْيِيمُ الْحَقِّ مَئْهَةً بِالْمَئَةِ، سَيِّدُنَا دَاوُودُ حِينَما جَاءَهُ مَكَانٌ عَلَى شَكْلِ رَجَلَيْنِ يُخْتَصِّيْمَانِ إِلَيْهِ، قَالَ أَحَدُهُمَا:

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾

[سورة ص: ٢٣]

هذا النص دقيق جداً، كلمة: لي تسع وتسعون نعجة، هذا الكلام لا علاقة له بحيثيات الدعوة، كان يجب أن يقول: إن هذا أخي يريد أن يأخذ نعجي، له كذا وكذا، كل هذا الكلام خارج الموضوع، إذا أراد فلان من الناس أن يعتصب شيئاً، فهل تدخل في حي ثيات الدعوة أملاكه؟ لا علاقة لها بذلك، الاعتراض اغتصاب سواء كان المعتصب فقيراً أم غنياً! مع أنه نبي مرسُل قال: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجةولي نعجة واحدة، هذا الكلام طرق مسامع سيدنا داود، فأدخلها في حي ثيات الدعوة وقال:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمْتَ بِسُؤَالِ نَعْجَتَكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُطَاطِعَ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

[سورة ص: ٢٤]

هذه أمثلة صارخة.

الحياة الدنيا إنما جئنا إليها من أجل العمل الصالح :

رسول الله يقول:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِّمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ قَضَيْتُ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعَ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئًا))

[مسلم عن أبا سلمة]

البشرية لها عواطف تأخذ وتعطي، وهذا القاضي لما قال: ما استويا في نظري، ربنا عز وجل قال: ميزان، والميزان حديد والحديد لا يتاثر بالعواطف، فهذا الميزان لا يأخذ بالحجم، ولا يتمنى أن تكون هذه القطعة أوزن من هذه، ربنا عز وجل لما قال: ميزان، معنى ذلك أن تقدير الأعمال يوم القيمة من الدقة المتناهية بحيث أنه لا مثيل له في الأرض، أعمالك كلها صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، خاصتها وعامتها، فلو وضع النجار عوض البراغي مسامير يحاسب على هذا العمل الخفي، فالنجار له ميزان، والحداد له ميزان، وصاحب المصلحة له ميزان، والدهان له ميزان، وكلُّ صاحب صنعة له ميزان يحاكم فيها، الطبيب يحاسب حساباً غير حساب المحامي، لم

يُقْلِ الله عز وجل: فَأَمَا مَنْ نَقْلَتْ سَيِّئَاتُهُ! السَّيِّئَاتُ لَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي الْحِسَابِ إِطْلَاقًا، الشَّيْءُ الدَّاخِلُ فِي الْحِسَابِ هُوَ الْحَسَنَاتُ، لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *﴾

[سورة العصر]

من هذه الآية يتضح أنَّ هذه الحياة الدنيا إنما جئنا إليها من أجل العمل الصالح، وهذا العمل سوف يُقيِّمُ تقديرًا مُتناهياً في الدقة، العمل يُقيِّمُ بنية صاحبه ولِهَدْفِهِ، بمقدار ما أزاح من وقت ومن جُهدٍ وخِيرٍ.

إذا عَبَرَ الله عز وجل عن اسم الفاعل باسم المفعول فَهُنَاكَ عِلْمٌ كَبِيرٌ :

الشيءُ الغريبُ أنَّ الله سبحانه وتعالى قال: عيشة راضية، ولم يُقْلِ مرضية! لماذا؟ راضية اسم فاعل، الأصلُ أنْ يقول في كلامك: أنا راضٌ عن هذا البيت، أما أنْ أقول هو راضٌ عنِي فهذا ليس لها معنى، فلماذا لم يُقْلِ المولى عز وجل: فَهُوَ فِي عِيشَةٍ مَرْضِيٍّ عَنْهَا؟ هذا الموضوع مُعَقَّدٌ، فقد قال بعضُهم: قد يُسْتَخَدَّمُ اسم المفعول مكان اسم الفاعل، تقول جريح وهو بمعنى مجروح، وكذا قتيل وطريح فهذا في اللغة واردٌ، وكذا واردٌ أنْ نستخدم اسم الفاعل مكان اسم المفعول، قال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصْلَكِينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ *﴾

[سورة الماعون: ٥]

فَهؤلاء البشر الذين يتجلّى الله عليهم بإمدادِهم كيفَ هم غافلون عن هذه الصلاة؟! من معاني هذه الآية أنَّ هؤلاء البشر جميعاً الله هو مُدُّهُم بإمدادِهِ وتجلياتهِ وروحهِ وهم عن هذه الصلة غافلون، لكنَّ بعضَهم قال: لا يمكن أن نستخدم اسم الفاعل مكان اسم المفعول ولا اسم المفعول مكان اسم الفاعل إلا لِعِلْمٌ كبيرٌ، فَرَبَّنَا عز وجل قال:

﴿وَإِذَا قَرأتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا *﴾

[سورة الإسراء: ٤٥]

فكلمة مستور لها معنى ساتر، وقالوا: الحِجَابُ الْكَثِيفُ الْمُؤَلَّفُ من طَبَقَتِينِ ساترٍ ومستورٍ، فلما عَبَرَ الله عز وجل عن اسم الفاعل باسم المفعول فَهُنَاكَ عِلْمٌ كَبِيرٌ.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّ الْمُخْلُوقَاتِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى تُسْهِمُ فِي إِمْتَاعِ الْمُؤْمِنِينَ :

قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَرأتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا *﴾

[سورة الإسراء: ٤٥]

هناك آية أخرى قال فيها ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَدْخَلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَرْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَتَذَلَّلُهُمْ ظِلَّاً ظَلِيلًا﴾

[سورة النساء: ٥٧]

فهذا الظل ظليل أم مظلل؟! كذلك هنا المعنى نفسه ظل فوق ظل، فصار الظل الأول مظللاً أيضاً، من باب المبالغة وهذا توجيه. بعضهم قال: لا، العيشة نفسها راضية، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

[سورة الإسراء: ٤٤]

فالنفس البشرية نفس والنبات نفس والجماد نفس، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَهَمْلَهَا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

[سورة الأحزاب: ٧٢]

فهذه الأشياء تسبح، لماذا عيشة راضية؟ قال: الإنسان في الدنيا قد يأكل اللقمة وهي تلعنة لأنها ليس أهلاً لها، وقد يدخل بيته وهو يلعنه لأنها كافر وجاحد بنعم الله عز وجل، لكن الله سبحانه وتعالى سخر له هذا البيت وهذا الطعام، وسخر له هذه الدابة، وهذه الكأس من الماء، لكن يوم القيمة هذه المخلوقات تسمم في إمتاع المؤمنين.

المؤمن يوم القيمة يأكل اللقمة وهي راضية عنه لأنها تعلم أنه يستحقها :

تعلم أن هذا المؤمن له حياة مملوءة بالطاعات، وأنه يستحق هذا النعيم، فهي بهذا راضية عنه، فالمؤمن يوم القيمة يأكل اللقمة وهي راضية عنه لأنها تعلم أنه يستحقها قال تعالى:

﴿كُلُوا وَاشْرِبُوا هَنِئُوا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَامِ الْخَالِيةِ﴾

[سورة الحاقة: ٢٤]

رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرف حبراً بمكة يسلّم عليه، ودخل إلى بستان فرأى جملًا فما رأه الجمل ذرفت عينا الجمل بالدموع، فمسح جفنيه وقال: من صاحب هذا الجمل، فقالوا: فتى من الأنصار، فقال: آتوني به، فلما جاءوا به قال: ألا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملك الله إياها فإنه شكا إلي، وحينما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى المنبر حنّ إليه النخلة، حتى أنها سمعت الحناء ونص الحديث:

((أَنَّ أَبَا الزَّبِيرِ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَطَبَ يَسْتَنِدُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَلَمَّا صَنَعَ الْمِنْبَرَ وَأَسْتَوَى عَلَيْهِ اضْطَرَبَتْ

تِلْكَ السَّارِيَةُ كَحَنِينِ النَّاقَةِ حَتَّى سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ حَتَّى نَزَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاعْتَنَقَهَا فَسَكَتَ ((

[النسائي عن جابر بن عبد الله]

وهي الان في المقام النبوى الشريف مِنْبَرٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَمَزٌ لِهَذِهِ النَّخْلَةِ الَّتِي قُطِعَتْ، وكانت تَحْنَ إِلَيْهِ، كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَما يَصْدِعُ الْمِنْبَرُ يَضُغُّ يَدَهُ عَلَى النَّخْلَةِ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَسْتَهِلُّكُهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، لَذُكَّرُ بَعْضُ الْعَارِفِينَ قَالَ: إِذَا إِنْسَانٌ جَلَسَ بِيُسْتَانٍ وَوَجَدَ حَشِيشًا ثُمَّ قَطَعَهُ كَانَ ذَلِكَ إِنْمَا إِذَا يَقُولُ لِكَ الْحَشِيشُ: لَمْ قَطَعْتَنِي؟! لَوْ أَنَّ خَرْوَافًا أَكَلَنِي لَكُنْتُ سَعِيدًا، إِنِّي خَلَقْتُ مِنْ أَجْلِ الْخَرْوَافِ كَيْ يَقْتَاتَ بِي وَلِكَيْ نَقْتَاتَ أَنْتَ بِالْخَرْوَافِ! قَدْ قَطَعْتُ زَهْرَةً، لَوْ بَلَغَتْ حَسَاسِيَّتَكَ هَذَا الْمُسْتَوَى لَخَشِيتَ أَنْ تَوْسُّ عَلَى زَهْرَةِ لَأَنَّهَا نَفْسٌ تُحَسِّبُكَ، لَوْ تَرَكْتَ فِي صَحْنِكَ حَبَّةً رَزَ لِعَاتِبَكَ لَأَنَّهَا نَفْسٌ، سَيِّدُنَا حَنْظَلَةُ رَأَهُ سَيِّدُنَا الصَّدِيقُ يَبْكِي فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ يَا حَنْظَلَةُ تَبْكِي، قَالَ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، فَقَالَ الصَّدِيقُ وَلِمَ؟ قَالَ: نَكُونُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَنَحْنُ مَعَ الْجَنَّةِ كَهَاتِيْنَ، فَإِذَا عُدْنَا لِلأَهْلِ لَهِيَّتْ قُلُوبُنَا! لَوْ بَقِيْتُمْ عَلَى الْحَالِ لَصَافَحْتُكُمُ الْمَلَائِكَةُ، الْمَعْنَى الْأَوَّلُ بِالْعِيشَةِ الرَّاضِيَّةِ أَنَّ إِنْسَانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ هَذَا الَّذِي يَأْكُلُهُ نُفُوسُ، يَسْتَحِقُ أَنْ يَأْكُلَ هَذَا إِنْسَانٌ هَذَا الطَّعَامُ وَهُوَ رَاضٌ عَنْهُ، أَمَا فِي الدُّنْيَا قَدْ يَشْرُبُ هَذَا إِنْسَانٌ هَذَا الْمَاءُ وَهُوَ يَلْعَنُهُ، وَقَدْ يَأْكُلُ الطَّعَامَ النَّفِيسَ وَهُوَ يَلْعَنُهُ لَأَنَّهُ يَكْفُرُ بِرَبِّهِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾

[سورة الدخان: ٢٩]

معنى لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (فَهُوَ فِي عِيشَةِ رَاضِيَّةٍ) :

سَيِّدُنَا أَنَسُ سَئَلَ: يَا إِمَامَ أَنْبَكِي السَّمَاءَ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَا دَامَتْ هَذِهِ لَمْ تَبْكِ عَلَى هُؤُلَاءِ لَا بَدْ أَنَّهَا تَبْكِي عَلَى أَنَاسٍ آخَرِينَ، رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَ عِنْدَمَا قَالَ:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾

[سورة الدخان: ٢٩]

قَالَ عَلِيٌّ مَوْضِعَانِ: مَوْضِعٌ فِي السَّمَاءِ وَمَوْضِعٌ فِي الْأَرْضِ يَبْكِيَانِ عَلَى الْمُؤْمِنِ، مَصْنَعُ عَمَلِهِ فِي السَّمَاءِ، وَمُصْلَاهُ فِي الْأَرْضِ يَبْكِيَانِ عَلَيْهِ، فَالسَّمَاءُ تَبْكِي، بَعْضُ الْمُزَارِعِينَ يَنْهَا عَنْ سَلْخِ الْغَصْنِ لَأَنَّهَا نَفْسٌ لَا بَدْ مِنْ قَصَّهُ قَصًاً نَظَامِيًّاً، فِي بَعْضِ التَّجَارِبِ وَضَعُوا جَهَازًا حَسَاسًا لِلرَّطْبَوْةِ وَضَعُوا عَلَى غَصْنِ نَبَاتٍ، جَاءَ إِنْسَانٌ وَمَرَّ بِنَبَاتًا أَمَامَهُ فَإِذَا بَعْرَبَ الْجَهَازَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هَنَاكَ حَيَاةً لِلنَّبَاتِ لَمْ يَكْتُشِفُوا حَقِيقَتَهَا بَعْدَ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةِ رَاضِيَّةٍ﴾

[سورة الحاقة: ٢١]

هذا الشيء الذي يتتعمّ به يوم القيمة نُفوسٌ راضيةٌ عن المؤمن، والمعنى الآخر أنَّ الإنسان في الدنيا قد يكون في نعيمٍ مُقيم لكن يُداخِلُه فاقٌ عمي لا يفتَ حتى يُفارق هذا البيت، أو أن يُفارق هذه الزوجة، أو يُبْيِع هذه السيارة، هذا القلق يُدمِّر سعادته، أما ربنا عز وجل لما قال:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾

[سورة الحاقة: ٢١]

أيًّا هذا الشيء الذي معه في الجنة راضٌ عنه، ومعنى راضٌ عنه أَنَّه مُلَازِمٌ له، ولا يُنفكُ عنه، ليس مُسْخَراً بل هو مُلَازِماً لهذا الإنسان طُوعاً، وهذا هو معنى قوله تعالى:
 ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقَلْتُ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾

بركات الجنة وبركات النار :

مثلاً - ولو أنَّ الإيداع بالصرف غير وارد - إذا إنسان أودع ليرتين في مصرف ثم غاب سنتين ثم رجع فأراد كشف حسابه فإذا به يجد أن حسابه اشترى عشرة ليبرة، أما لو أودع الإنسان مئتي ألف كل يوم ثم غاب عشر سنوات فإذا أراد كشف حسابه بعد العودة، أعطوا له دفتر كشف حساب لأنَّه لا تكفي ورقة لعد ما ترك وما ربح! للإنسان عمل كبير بالدنيا يودعه صدقات، زكاة، إعانة مريض، خدمة إنسان، أحسن لزوجته وأولاده وجيرانه، هذه أعمال ضخمة وثقيلة يوم القيمة، قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقَلْتُ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهُ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾

كلمة أم مبعثُ الحنان، ملجاً وملاذ وهذه من بлагة القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿وَإِنْ يَسْتَغْيِثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاعَتْ مُرْتَفَقًا﴾

[سورة الكهف: ٢٩]

فأمه التي يأوي إليها وبختمي في كفها ويرتاح في حجرها هي النار، فآمَه هاوِيَة، يهُوي بها، لم بلغ أنَّ النبي علم أنَّ بعض المنافقين تُوفَّى قال: الآن استقرَّ في جهنَّم حجرٌ كان يهُوي منذ سبعين خريفاً، لذلك قالوا: برَّاتِنَّ بركاتِ الجنة وبرَّاتِنَّ بركاتِ النار قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

[سورة النساء: ١٤٥]

افتَرَشَ الأرضَ وَالْتَحَفَ بِالسماءِ:

مُشَرَّدٌ يهُوي إِلَى هَمَّهِ إِذَا أَوَى الطَّيْرُ إِلَى وَكْرِهِ

* * *

﴿فَآمَهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهُ﴾

هذه الأُمّ التي يأوي إليها هي نار حامِيَةٌ! لو أن إنساناً قال لك: هذه المِقالة ساخنةٌ كان معنى ذلك أن حرارتها مئة وخمسون، أما إذا إله عظيمٌ قال لك: نار حامِيَةٌ فهي على قدرَتِه، وهذه صورةٌ دقيقة.

والحمد لله رب العالمين